دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان: التعريب تجد وضرورة ملحة
المصدر: مجلة الدبلوماسي
الناشر: وزارة الخارجية - معهد الأمير سعود الفيصل للدراسات الدبلوماسية
المؤلف الرئيسي: ابن خرافة، مصطفى
المجلد/العدد: ع 39
محكمة: لا
التاريخ الميلادي: 2008
الشهر: مارس - ربيع الأول
الصفحات: 46 - 51
رقم MD: 386188
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: EcoLink
مواضيع: النظم التعليمية ، التعريب ، الأمية ، العالم العربي ، اللغة العربية ، اللغة الفصحى ، الاستعمار
رابط: http://search.mandumah.com/Record/386188

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

# التعريب تحدٍّ وضرورة ملحة

د.مصطفى بن خرفة - الرياض
أستاذ مساعد بالمعهد الدبلوماسي

تمتعت اللغة العربية الفصحى، لوقت طويل، بمكانة مرموقة في التاريخ العربي، وذلك لكونها لغة القرآن الكريم، وبصفتها وسيلة لتعزيز الشعور القومي العربي فيما بعد. لهذا الغرض يُشكّل التعريب، بالنسبة للدول العربية، ضرورة حتمية، لأنه لا يعيد للغة العربية الفصحى مجدها فحسب، بل سوف يساهم كذلك في جر الدول العربية للتطلع نحو استقلالية لغوية، والتخلص من التبعية الثقافية الموروثة عن المستعمر.

من خلال هذه الورقة سوف نحاول الكشف عن التحديات التي تواجه اللغة العربية وعملية التعريب على وجه الخصوص خلال القرن الحالي، ثم رفض بعض الاعتقادات الخاطئة حول عدم قدرة اللغة العربية في الاستجابة لمختلف متطلبات الحياة الثقافية اليومية بمختلف مشاربها، مع تأكيد ضرورة التعريب، ومجموعة الامتيازات التي قد تحصل إذا ما تم العمل به.

### واقع اللغة العربية وحاجة الدول العربية إلى التعريب

إن اللغة العربية هي لغة القرآن، واللغة التي هيكلت الثقافة الإسلامية والكتابات الأدبية التي لم تتعرض لهزات لغوية على مر التاريخ. فقد عدت، من طرف بعضهم، مفتاحًا لأكبر خزان منذ ١٣٠٠ سنة مضت، مع الاستقرار الذي تمتعت به، والذي قلّما وجد في لغات أخرى. وإذا ما اعتمدنا تحليلًا دقيقًا وذا أهمية، فسوف نخلص إلى أن اللغة العربية اليوم تواجه مشكلات عدة، وطبيعة هذه المشكلات تتباين بصفة شمولية حسب حدتها، وهو ما سوف نقوم بتسليط الضوء عليه عن قرب.

إن الواقع السوسيو لغوي للغة العربية يتميز بوجود ازدواجية لغوية من نوعين: «يعرف في علم اللغة بالدايجلوسيا»(١) نوع من داخل اللغة العربية نفسها يرجع تاريخه إلى المراحل المبكرة من تاريخ اللغة العربية الفصحى، ونوع تشترك فيه اللغة الأجنبية. وما زالت تشكّل هذه الازدواجية اللغوية عائقًا أمام اللغة العربية، والتنافس الموجود بين اللغة الفصحى والعامية من جهة واللغة الفصحى واللغة الأجنبية من جهة أخرى، الشيء الذي جعلها تفقد الكثير من مشروعيتها لصالح الفرنسية، والإسبانية في المغرب العربي، والإنجليزية في المشرق العربي. لذا أصبحت اللغة العربية مضايقة من طرف اللغات العامية والمبتذلة من جهة، واللغات الأجنبية من جهة أخرى.

إن كل نوع من هذه الازدواجية يؤدي مهمته السوسيولوجية في سياق الخطاب الذي يتعامل معه. ففي الحالات الرسمية كالخطابات السياسية، والمواعظ الدينية، والمراسلات الرسمية، يشترط استعمال النوع الموصوف بالسمو (High)، وهو المستوى الفصيح للغة. أما النوع الآخر والموصوف بالمبتذل (Low) فيعتمد في الحالات غير الرسمية، ويبقى الأكثر استعمالًا في معظم دول العالم العربي، وهو بذلك اللغة المشتركة (Lingua Franca) بين أفراد المجتمعات العربية.

هذه اللغة المشتركة تتباين من دولة إلى أخرى، بل أكثر من ذلك، يوجد داخل اللغة المشتركة الواحدة أكثر من لغة محلية مبتذلة ومتباينة فيما بينها نتيجة للحدود الطبيعية والاجتماعية التي تتدخل في توزيع المفردات اللغوية. ولهذا تبدو طبيعيًا الإشارة إلى أن اللغة المبتذلة لا تحترم القواعد اللغوية التي تحكم اللغة الفصحى كالإعراب والمثنى، ما يجعل مفرداتها وتراكيبها أكثر سهولة، وأكثر انفتاحًا لاستقبال مفردات جديدة مستعارة من لغات أجنبية.

ففي هذا الباب، حاول الكثير من المؤيدين الغربيين التشكيك في قدرات اللغة العربية الفصحى خصوصًا في ميادين العلوم والتقنية. والغريب في الأمر أن مثل هذه الادعاءات لقيت صدى واسعًا لدى الكثير من العرب المؤيدين لشنّ حملة من الداخل كونها في نظرهم سبب التخلف الذي غرق فيه العالم العربي. وكبديل للغة الفصحى عملوا على تشجيع استعمال اللغات المبتذلة، مع تبني الحروف اللاتينية في نظام الكتابة محلّ الحروف العربية.

كل هذه العوامل أدَّت إلى وجود حركة محافظة اتخذت من اللغة العربية منطلقًا لها ونادت باعتمادها في مختلف القطاعات، غير أن هذا التعريب بقي متأرجحًا بين رأيين: رأي أولئك الذين يتساءلون حول مدى ضرورته في مختلف مجالات الحياة، ورأي أولئك الذين يعدّونه أداة تساهم في تعطيل آلية التقدم وإغراق العالم العربي في تخلُّفه.

والمهتم بهذا الميدان يلاحظ أن اللغة المبتذلة تجاوزت إطارها العامي لتطارد اللغة الفصحى في «عقر دارها». فلنأخذ، على سبيل المثال، وضع مدرس يلجأ في إطار إيصال المعلومة إلى الدارس، إلى اللغة المبتذلة كبديل، أو يعتمدها وسيلة لضعف كفاءة الدارس اللغوية. ولقد أرجأ كثير من السوسيولغويين المهتمين باللغة العربية هذا التجاوز إلى كون نسبة لا يستهان بها من سكان العالم العربي تعاني مشكلة الأمية أو الجهل باللغة «عدد الأميين في العالم العربي حاليًا يفوق ٦٨ مليون شخص وِفقًا لتقرير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم»، ويرون أن هذه الازدواجية قد يمكن التغلب عليها إذا تم شن حملة توعية لمحاربة هذه الظاهرة.

إن هذا الوضع اللغوي المعقد، داخل المجتمعات العربية، ليعبر بحق عن عائق كبير أمام تطوره الاقتصادي والتربوي، بيد أن هذه الازدواجية داخل اللغة العربية لا تشكل خطرًا محدقًا إذا قورنت بمشكل اللغة الأجنبية التي تشكل تحديًا ذا طبيعة مغايرة.

### آثار النوع الآخر من الازدواجية على اللغة العربية

بعد رحيل المستعمر عن الدول العربية ترك وراءه إرثًا لغويًا يصعب الاستغناء عنه، ما أوجب على الدول المستقلة إيجاد لغة رسمية مكتوبة، خصوصًا أن هناك أكثر من لغة مبتذلة للاعتماد عليها في التواصل الخطابي مع الدول المجاورة واحتسابها رمزًا لوطنيتها. أمام هذه الوضعية اللغوية المعقدة، يكون المستعمر قد ثبَّت فكرة الازدواجية والتعددية اللغوية. بل أكثر من ذلك، حاول المستعمر زرع نار الفتنة بتشجيعه الواسع لاستعمال اللغة المبتذلة عوضًا عن اللغة الفصحى، منطلقًا من فكرة أن اللغة العربية لغة ميتة، وأن اللغات المبتذلة منحدرة منها شأنها في ذلك شأن اللغات الرومانية المتفرعة عن اللاتينية.

ففي حالة المغرب العربي، فإن تزامن وجود اللغتين العربية والفرنسية يختلف من حيث الهدف. فاللغة العربية يرتبط وجودها بوجود الإسلام، وتعد الإطار الرسمي للثقافة والحضارة الإسلاميتين حتى منذ الوجود الأول للبرابرة الذين أبدوا تحمسًا كبيرًا تجاه الدين الجديد واللغة الجديدة، الشيء الذي عُدّ بمنزلة نقطة تحول في تاريخهم. لقد اقترن وجود الفرنسية والإنجليزية في دول العالم العربي بوجود المستعمر الذي فرض قوته لنشر أفكاره التي كانت تنم عن تفوقهم الثقافي واللغوي، وفي المقابل كانوا يشنون حملات شعواء على اللغة العربية، الشيء الذي جعلها تعاني نكسات ابتداءً من القرن ١٩، وجعلها ترتبط بكل ما هو ديني وتبتعد عما يربطها بتطورات العصر.

وبمجرد إلقاء نظرة على الواقع العربي نستطيع أن نستنتج إلى أيّ مدى نجحت سياسة المستعمر في تثبيت خططه المؤدية لفرض الفرنسية أو الإنجليزية، مع التنقيص من شأن اللغة العربية. فبعد استقلال الدول العربية، بقيت لغة المستعمر تستعمل في أكثر من ميدان: فهي لغة العلم والعصر، والتقدم والحضارة والمساواة، واللغة العربية بقيت لغة الماضي البعيد والتخلف.

هذا الوضع اللغوي الذي خيم على المجتمعات العربية كان سببًا في إثراء البحث لإيجاد سياسة تربوية تتناسب مع واقعهم دون إهمال دور اللغة الأجنبية في هذه السياسة، ليغطي بذلك تدريس اللغة العربية مختلف مجالات الحياة، وتصبح بذلك اللغة الأجنبية نافذة للإطلالة على العالم الخارجي. هذا النوع من الازدواجية الإيجابية يرمز إليه المتخصصون بالازدواجية الجمعية (Additive Bilingualism) حيث تصبح فيه اللغة الأجنبية لغة إضافية للمساهمة بخصائص مرغوب فيها لا تؤدي إلى استلاب للغة أو الهوية أو ثقافة المجتمع. ونقيض هذه الازدواجية الجمعية هو الازدواجية الطرحية (Subtractive Bilingualism).

**عدد الأميين في العالم العربي يفوق 68 مليون شخص وِفقًا لتقرير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم**

### الآثار السلبية للازدواجية

بتعريب نظام التعليم قد يتم، لا محالة، القضاء على الازدواجية التي تعد ثمرة الثقافة الاستعمارية. لقد عمل المستعمر على طمس الهوية العربية الإسلامية، وحط من دور اللغة العربية في المثاقفة، وعلى العكس شجع الازدواجية محتسبًا إياها مرحلة انتقالية نحو التحضر.

ففي المغرب مثلاً، اقتنع مسؤولو قطاع التربية والعلوم بأن الازدواجية أنهكت قوى الجميع، كما استنزفت الطاقات الاقتصادية والفكرية داخل المجتمع المغربي. وأعاقت تقدمه. والإحصائيات التالية توضح ذلك:

فمن السكان الذين تقل أعمارهم عن سن العاشرة، وطبقًا لإحصاء ١٩٧٠، وصل عدد الأميين ٧،٦٦٣٠٠٠ أي ما يعادل ٧٥٪ بالمقارنة مع ٨٧٪ سنة ١٩٦٠. هذا يبين أن العدد في انخفاض بطيء، بنسبة ١٪ سنويًا، ما يعني أننا في حاجة

إلى ٧٥ سنة للقضاء على هذه الظاهرة.

خلال السنة الدراسية ٧٩-١٩٨٠ وصل عدد الأطفال الذين وصلوا سن التمدرس (بين ٧ سنوات إلى ١٤ سنة) حوالي ٤،٢٨٠٠٠٠ غير أن الذين أقبلوا على المدارس لا يتعدى عددهم ١،٩٨٥٠٠٠ هذا يبين أن مبدأ نشر التعليم الأساسي والإجباري وتعميمه لم يتحقق حتى ولو بنسبة ٥٪. وكما هو معلوم أصبحت اليوم ظاهرة الأمية في ارتفاع مستمر خصوصًا في البوادي والقرى النائية.

## بعد رحيل المستعمر عن الدول العربية ترك وراءه إرثًا لغويًا يصعب الاستغناء عنه

لقد ارتفعت نسبة «الراسبين» و«المفصولين» بسبب الكم العددي في المواضيع التي تفرضها المناهج التربوية ذات الاتجاه الازدواجي. فتكوين الدارس خلال المرحلة الابتدائية، يتطلب حوالي ثماني سنوات ونصف السنة بدلاً من خمس سنوات. أما المرحلة الإعدادية والثانوية، فيحتاج الدارس إلى عشر سنوات بدلاً من سبع سنوات لإنهاء مشواره التعليمي. وهذا يعني أن تكوينه خلال المراحل الثلاث يتطلب حوالي تسع عشرة سنة بدلاً من اثنتي عشرة سنة. وبذلك يكون الدارس قد حصل على الشهادة الثانوية «الباكالوريا في دول المغرب العربي» وعمره أصبح خمسًا وعشرين سنة بدلاً من ثماني عشرة سنة كما هو متعارف عليه في الأنظمة التعليمية في باقي دول العالم.

انطلاقًا من هذه الإحصائيات، خلص الاختصاصيون إلى القول بضعف الجهاز التعليمي الذي تعد بنية أنظمته مكلفة ولا تساعد على تعميم التعليم الأساسي والإجباري في البوادي مع استجابتها لمتطلبات الدارسين ومؤهلاتهم. ونتيجة لذلك، بات من الضروري إيجاد أسس جديدة لنظام تعليمي أفضل تضمن الاستجابة لطموحات هؤلاء الدارسين. وقد تأتى لهم ذلك بنهج خطة التعريب على نطاق أوسع، إلا أنها لقيت نفورًا كبيرًا على مستوى العلوم، في المرحلة الجامعية، التي ظلت تدرّس إلى يومنا هذا باللغة الفرنسية بالرغم من أن مستوى الدارسين اللغوي لا يحسدون عليه، الشيء الذي يسبب متاعب للأساتذة في أثناء تصحيح اختباراتهم.

لقد ظلت الجامعة المغربية بفروعها العلمية حتى يومنا هذا ترفض هذا المشروع رفضًا باتًا، وتتعامل مع اللغة العربية وكأنها لغة أجنبية. وهذا التناقض يظهر جليًا في تعامل الجامعة مع الدارس الذي أنهى المرحلة الثانوية العلمية معرَّبة، حيث تفرض عليه تعليمًا جامعيًا في إطار لغوي مخالف تمامًا لما استأنس به خلال المرحلة الثانوية، وكأنه يتقن هذه اللغة المؤطرة لهذا التعليم أحسن إتقان.

وبنهج مشروع التعريب، تتقوى الروابط الاجتماعية وتمحي الفرق الطبقية بالقضاء على عنصر تفضيل ذوي التعليم المزدوج لشغل وظائف على حساب المعرَّبين، الشيء الذي يعبر عن فضاء تربوي تتكافأ فيه فرص التعليم والعمل، ويتم من خلاله القضاء على البطالة. لكن هذا لن يتم إلا بتطبيق كامل للمشروع، وهذا ما يعاب على المغرب في تطبيقه له.

فماذا ينتظر من هذا الطالب؟ وما دوره لاحقًا داخل المجتمع؟ فالتصدع الذي عرفه المشروع، على مستوى التربية والعلوم، أدى إلى نتائج لا تحمد عقباها من بطالة متفشية من حملة الشهادات العليا، وارتفاع نسب الرسوب والانسحاب في كل المستويات.

والحل إذن، هو إعادة الاعتبار للغة العربية، مع التخطيط العلمي المحكم لتخريج أفواج جديدة تتمشى وحاجيات المجتمع، والاعتناء بإعادة تكوين الأطر المؤطرة بصفة مستمرة. فقد يساهم التعريب، بلا منازع، في وضع حد لأخطر مشكلة تواجه الدول العربية منذ استقلالها ألا وهي مشكلة هجرة الأدمغة العربية. فبشهادة الجميع، تعد هذه الظاهرة بمنزلة عائق أمام هذه الدول، دون إغفال العواقب الضارة بجوانبه الاجتماعية والاقتصادية.

ولعلنا نأخذ العبرة من اللغة العبرية التي تم إحياؤها بعد نسيان دام أكثر من ١٧٠٠ سنة لتصبح لغة رسمية من جديد. فتاريخها فريد من نوعه، وإعادتها إلى السطح أبهر اللغويين الذين تعوَّدوا تقبل مقولات التطور التاريخي التي تفنِّد إمكانية إحياء اللغة. هذا يبيِّن أن اللغة العربية يمكن أن تختصر المشوار بالنهوض بها وتحديثها عبر الاستعمال لتسليط الضوء على المشاكل التي قد تلاقيها والحلول المرتقبة. بذلك تصبح المهمة بيد اللغويين المتخصصين والمخططين التربويين فيما يخص التصنيف والاشتقاق، ونشر المصطلحات والمعاجم الموحدة للاستفادة منها، وتسهيل توزيعها وتداولها على نطاق واسع.

**مؤامرة ضد اللغة العربية من الخارج ومن الداخل**

يعد المعادون للغة العربية من الأوروبيين ومؤيديهم من العرب أن هذه اللغة كانت سببًا مهمًّا في تخلف العالم العربي، وكانوا دائمًا يطالبون بالتخلي عنها واعتماد اللغة المبتذلة. والغريب في الأمر أن الدول الأوروبية، كفرنسا وإيطاليا، طالبوا بإدراج اللغة العربية المبتذلة في برامجهم التعليمية قبل أن يصلوا كمستعمرين إلى الدول العربية. وهذا يبين مدى اهتمام هذه الدول

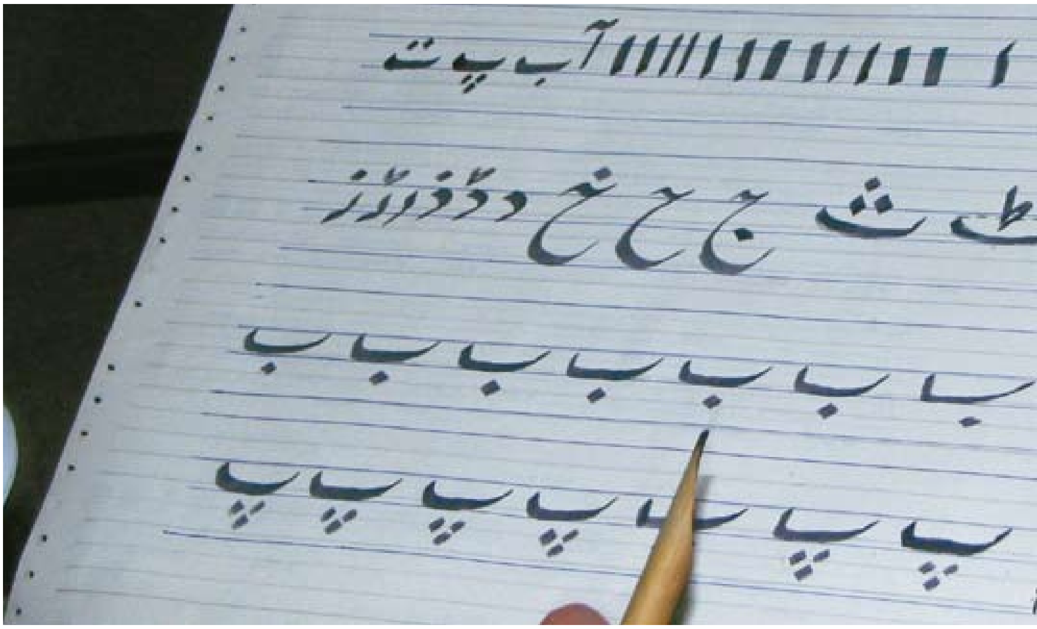

باللغة المبتذلة لاجتثاثهم من الجذور وسلبهم هويتهم الوطنية ووحدتهم المتجلية في استعمال اللغة العربية.

فمن المؤيدين لهذه الأفكار هناك المهندس ويلكوكس الذي كتب مجموعة من المقالات، وألقى محاضرات شن من خلالها الحرب على اللغة العربية. وأهم محاضراته: «سوريا، مصر، شمال إفريقيا ومالطا يتكلمن البونية وليس العربية»(٢)، و«لماذا المصريون لم تكن لديهم القدرة على الاختراع». رأى ويلكوكس أن التخلف وانعدام الإبداع في العالم العربي ناجمان عن وجود اللغة العربية الفصحى التي احتسبها ميّتة، وأكد أنه من الضروري تجاوز هذه العقبات باعتماد اللغة المبتذلة. ولدعم فكرته، لجأ إلى ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية المبتذلة لتيسير قراءته وفهمه عند عامة الناس. وانضم صوت آخر للمحامي البريطاني ويلمور الذي أصدر كتابًا سنة ١٩٠١ تحت عنوان: «اللغة العربية المستعملة في مصر». فحملته كانت أعنف من التي قادها ويلكوكس، بحيث لم يكتف بضرب اللغة الفصحى وتشجيع اللغة المبتذلة فحسب، بل طالب باعتماد اللغة اللاتينية وأحرفها في الكتابة بدلًا من العربية، ما زاد مشكلة الازدواجية اللغوية تعقيدًا. وبذلك أصبح اعتماد اللغة الواحدة بين الدول العربية صعب المنال.

في الداخل كانت المؤامرة من جهة العرب المناصرين لفكرة استعمال اللغة المبتذلة والحروف اللاتينية في الكتابة، خصوصًا في مصر، حيث نادوا «بقومية مصرية» بدلًا من «قومية عربية». هذه الحركة من المؤيدين طالبت «بمصرنة» لغة الأدب والآداب، أي باستعمال اللهجة المصرية «لغة الأجداد»، أو إصلاح اللغة الفصحى عن طريق ما سماه أحمد الزيات (١٩٣٧) «التسامح اللغوي» Linguistic–Tolerance– أي باستعمال الكلمات المستعارة ومفردات اللغة المبتذلة في الكتابة. كما طالب كل من محمد تيمور وسلامة موسى (١٩٥٦) باحتساب اللغة العربية المبتذلة لغة وطنية. وخلال هذه الفترة فوجئ مجمع اللغة العربية بمصر باقتراح يرمي إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، إلا أن الاقتراح لم يؤخذ بجدية. وفي الآونة الأخيرة عدّ الأمين العام لمجمع اللغة العربية د.كمال بشر أن الدعوة إلى إحياء الهيروغليفية أو المصرية القديمة دعوة إفساد وتخريب في ظل اضطراب العربية وأهليها علميًا، وثقافيًا، واجتماعيًا، واقتصاديًا.

في البداية ساهمت هذه الأفكار في تشجيع مبادئ الجهوية والانفصالية في اللغة التي عمد المستعمر إلى تركيزها بهدف السيطرة لا خدمة الدول العربية. وكنقيض لهذه الأفكار، ظهرت حركة وطنية إصلاحية أعادت للغة العربية اعتبارها، فحذا الوطنيون حذو المعرَّبون من أجل تعريب كلي، غير أن العملية كانت تشوبها اعتقادات خاطئة واعترض سبيلها الكثير من الصعاب.

ونخلص إلى القول إن معظم الدول العربية أصبحت واعية بأهمية دور التعريب، إلا أن هذا المشروع الضخم ما زال يعاني مشاكل عدة. فقد ظلت العزيمة غير كاملة لتحقيقه بسبب اعتقادات بعضهم الخاطئة والناتجة عن التأثير السلبي لثقافة الغرب، حيث أصبح بعضهم يشكك في قدرات اللغة العربية مقارنة باللغات الأوروبية، خصوصًا في ميداني العلوم والتقنية. فهيمنة اللغة العربية بالنسبة لهم، ستعزل العالم العربي عن العالم الخارجي، خصوصًا إذا قدرنا أن اللغة الأجنبية هي لغة التواصل والتفاعل بين مختلف الحضارات. فهذا الإفراط في ذكر العيوب يجعل اللغة العربية لغة عقيمة تختلف عن باقي لغات العالم.

إلا أن هذا النقص ليس من قبيل اللغة العربية وحدها، بل كثير من لغات العالم، حتى الأكثر تطورًا، تعاني هذه الظاهرة. فالمراحل التاريخية السابقة بينت أن أي لغة معرضة للتهميش، وبقلة الاستعمال تفقد وزنها ودورها المنوط بها، ولا شك أن مثل هذه المواقف السلبية تجاه اللغة العربية تشكل حاجزًا يصعب تجاوزه، وأن تشجيع لغة أجنبية كالفرنسية، أو الإنجليزية محل العربية يجعلها في تبعية للثقافة الغربية.

**قوة اللغة العربية**

لا نحتاج أن نوضح أن اللغة تمر في تطورها بعدة مراحل شأنها في ذلك شأن المجتمع الذي يستعملها. لذا عدّها المتخصصون بمنزلة نظام سوسيولوجي قابل للتكيف. فالشوائب التي علقت بها ليست ناتجة عن طبيعة اللغة ذاتها، بل من خلال استعمالها من طرف أفراد المجتمع الناطقين بها ومواقفهم تجاهها. فالتاريخ يشهد أن اللغة العربية هي لغة حضارة عالمية، ولغة أبدت قدراتها في تلبية متطلبات الثقافة والعلوم في الماضي «ترجمة فلسفة اليونان وآدابها وعلومها مثلًا»، وأن نكستها الحالية لا تحجب عنها كفاءتها في إيجاد مصطلحات جديدة ومناسبة في ميادين عدة. والآراء التي تعد اللغة العربية لغة ميِّتة أو غير مرنة للحلول محل الإنجليزية أو الفرنسية في الخطابات والأبحاث العلمية والتقنية هي اعتقادات مخطئة بحق، وذات مواقف انطباعية حاقدة لأنها تتناقض والتحليل العلمي الموضوعي.

**إن اللغة تمر في تطورها بعدة مراحل شأنها في ذلك شأن المجتمع الذي يستعملها**

فاللغة العربية، على عكس ما يقولون، لديها الاستعداد التام لإدماج الكثير من الأفكار، والمفاهيم، والمصطلحات الجديدة باعتمادها المستويات اللغوية التي تمتلكها: كالمستوى الدلالي والصرفي لإصدار مفردات جديدة. فعلم الدلالة يلعب دورًا كبيرًا في تشكيل مجموعات واسعة من المفردات، إما بإعادة استعمال مفردات قديمة بمفاهيم جديدة «كالسيارة» التي كانت تعني قافلة الجمال، والتي أصبح معناها الجديد يقترن باختراع محرك السيارة. أو باستعمال المجاز لترجمة معاني المفردات الأجنبية إلى العربية «كالهاتف» مثلًا، كانت تعني «صوت الإلهام» والآن اقترن معناها «بالتليفون». أو بترجمة عبارات مركبة «كوكالة الأنباء» (News agency) أو دول الأوبك (OPEC Countries). أما على المستوى الصرفي، فمبدأ الاشتقاق يعد أهم مبدأ بمختلف فروعه في اشتقاق الكلمات: كالاشتقاق

الصغير، حيث يتم اشتقاق كلمات جديدة من أصل واحد «عرف، عرّف، معروف، معرفة، اعتراف»، والقلب «جبر، بجر...»، والإبدال، أصل الكلمة يختلف والمعنى متقارب، «نعق، نق، نهق»، والنَّحت، كلمتان مركبتان من كلمة واحدة، «الزمكان: مركبة من الزمان والمكان»، والتعريب القياسي الذي يعمل على جعل المفردات المستعارة مدمجة في البنية العربية، حيث يصبح لها وزن واشتقاق كباقي المفردات الأخرى، ثم القياس الذي اعتمده النحاة العرب في اشتقاق مفردات من أوزان موجودة (Word patterns).

**الآفاق الحقيقية للتعريب**

لقد ظهرت في العالم العربي حركة النهضة اللغوية التي حملت على عاتقها توعية الناس بالخطر المحدق بهم والآتي من التحدي الذي أعلنته الثقافة والحضارة الأوروبيتان، فبدأ الاهتمام يتزايد باللغة العربية التي أصبحت تمثل رابطة أعادت الوحدة والهوية العربيتين.

فقد يتبادر إلى ذهن بعضنا أن حركة التعريب حركة انفصالية، بل على العكس، إنها تسعى إلى وحدة المصطلح العربي وترجمة الكتب العلمية في البلاد العربية التي طبقت التعريب في جامعاتها ومؤسساتها ليحصل التكامل باستعمال اللغة العربية ويعاد لها وزنها ومكانتها اللغويتان. إن من بين أهداف عملية التعريب جعل اللغة العربية قوية وقادرة على مواكبة الاختراعات العلمية والتقنية، ومن أجل ذلك انكبَّت الجهود على عصرنتها لترقى في أكثر من مستوى «النص، التعبير، النحو والمصطلحات». لهذا الغرض تمَّ إنشاء الكثير من الأكاديميات المتخصصة ومجامع اللغة في الشرق العربي اهتمت بتحسين اللغة وجعلها تواكب تطورات العصر، وذلك بإدخال مصطلحات جديدة للقاموس العربي، خصوصًا في المجالات العلمية والتقنية. ولكن وحتى لا تضيع الجهود، بسبب التضارب الذي قد يحصل بين هذه الأكاديميات، أصبحت الحاجة ملحة إلى إنشاء معهد متخصص في الدراسة والبحث حول التعريب (Institut d'Etudes et de Recherches sur L'arabisation: IERA) الذي أسندت مهامه للباحث الأخضر غزال الذي أبان عن قدرات عالية في هذا الباب.

بذلك أصبح مسلسل التعريب عملية شمولية تغطي كل جوانب الحياة الضرورية لتعيد للعربية مشروعيتها، فأصبحت اللغة العربية لغة رسمية ووطنية في الدول العربلية. ومن الملاحظ أن عملية التعريب لم تلق ترحيبًا كبيرًا من جهة المسؤولين لعدم رغبتهم في نجاح العملية، وتحت ضغوط الدول التي كانت مستعمرة لتخوّفها من فقدان دورها في نشر لغتها وثقافتها. ولهذا الغرض، بادرت الدول الغربية إلى إنشاء تكتلات انضمَّت إليها دول المستعمرات السابقة، هادفة من وراء ذلك نشر لغة المستعمر وثقافته، رابطة ذلك بأفكار جديدة تدعو إلى السلام بين الشعوب والديمقراطية «مجموعة دول الفرانكفونية ومجموعة دول الكومنولث».

لقد واجهت اللغة العربية ظروفًا جديدة ومغايرة تمثلت في نوعية الأفكار والمفاهيم الموجودة، وسرعة التقدم التي يعرفها ميدان العلوم وتقنية المعلومات والإنترنت والهندسة اللسانية، أو ما يعرف باللسانيات الحاسوبية (Computerized Linguistics)، فأصبح من الضروري نقل هذه المفاهيم والأفكار العلمية والتقنية إلى مختلف ميادين المعرفة العربية، ما ساهم في إحياء اللغة العربية وإنعاشها، وتحقيق استقلالية لغوية. لكن المعارضين لهذا المشروع استمروا في تعنتهم معدّين إياه عقبة أمام تطور العالم العربي ورخائه، ودعوة نحو العزلة والانكماش.

**ضرورة التعريب**

إن المطالبة بالتعريب لا تعني رفض تشجيع تدريس لغات أجنبية أخرى. فالكل يتفق على أن الإنجليزية هي لغة العصر، فهي لغة العلوم، والسياسة، والاقتصاد، والثقافة، والإنجازات العسكرية. وإلغاء تعليم هذه اللغة يعني قطع الروابط مع العالم الخارجي. إنه من الخطأ أن نعد تعثرات الماضي في تطبيق مشروع التعريب سببًا من أسباب عدم فاعليته. لكن من بين الأسباب التي أدت إلى فشله:

- نقص في الأطر ذات الكفاءة، والكتب المدرسية المناسبة في مجال التدريس، والقصور الذي حصل في تغطية مختلف المجالات الثقافية والعلمية.
- عدم حصول اتفاق بين الدول العربية حول توحيد المصطلحات، وتعدد أكاديميات اللغة العربية أدى إلى تعدد معاني المصطلح الواحد.
- عدم وجود تعاون بين الدول العربية، خصوصًا بعد حصولها على الاستقلال. فكل دولة اعتمدت مشروع تعريب خاصًا بها، ويناسب نظام تعليمها ومجالاتها المعرفية الأخرى.

فالتعريب ليس بذلك المشروع السهل، بل يحتاج إلى مثابرة وعمل مضن ومساعدات. لكن الغريب في الأمر هو أن معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالمملكة المغربية الذي مر على تأسيسه أكثر من أربعين سنة، والذي كان الغرض من وراء تأسيسه، في البداية، هو جعل اللغة العربية لغة التقنية، كانت مصادره المالية عبارة عن هبات من الملك، أو مساعدات من منظمات دولية ومجموعة الدول الأوروبية، أما مساهمات الدول العربية فكانت ضعيفة. فهل، يا ترى، كان ذلك راجعًا إلى عدم اهتمامها بمشروع توحيد المصطلحات لمواجهة التحديات في ميداني العلوم والتقنية؟ فاليابان مثلاً أولت أهمية قصوى لبرنامج مركزها للاستعلامات للعلوم والتقنية (The Japan Information Center for Science and Technology) بتخصيص مبالغ مالية ضخمة. فما ضروريات التعريب إذن؟

**بعض التجارب التي أظهرت هذه الضرورة**

لقد أثبت المحللون النفسانيون أن الطفل الذي يتعامل مع اللغة في حالة الازدواجية يتكون لديه

إحساس بالفشل والاستبداد، وهو ما يعبر عنه بالنقص المركب، الشيء الذي يدفعه إلى احتساب لغته ليست ذات كفاءة، وأن ثقافته لا يمكن أن تضاهي ثقافة اللغة الأجنبية التي تهيكل تعليمه.

لقد أثبتت التجارب التي أجريت خلال عام ١٩٨٦-١٩٨٧ في مجال التربية والتدريس أن لغة البلاد الرسمية تعد أحسن وسيلة في التدريس، لكي يتمكن الدارس من تجاوز العقبات في مراحله الدراسية. فعلى سبيل المثال، التجربة التي قامت بها أكاديمية اللغة العربية بالأردن بترجمة مقرر «علم الأحياء» لمؤلفه ر. جولد نسبي من الإنجليزية إلى العربية للأقسام التمهيدية لدراسة الطب. وقد أبانت النتيجة عن انخفاض نسبة الرسوب من ٣٠٪ إلى ٥٪.

في منتصف الستينيات، أثبتت التجربة التي قامت بها الجامعة الأمريكية في بيروت، والتي تعد اللغة الإنجليزية فيها لغة التدريس الأساسية، أن الدارسين الذين يتلقون تعليمهم بوساطة لغتهم الأم يستوعبون أحسن بكثير، ويتذكرون ما تلقونه لمدة طويلة. فالتجربة طبقت على مجموعتين: المجموعة الأولى حضرت شرح الموضوع باللغة العربية والمجموعة الثانية باللغة الإنجليزية. بعد اختبار معلومات المجموعتين، اتضح أن معلومات المجموعة الأولى، حول الموضوع، عادلت ما يقارب ٧٦٪. أما المجموعة الثانية فلم تتعد ٦٠٪، الإحصائيات نفسها لوحظت على مستوى الفهم والتعبير.

أما في الكويت فقد جاءت التجربة لتؤكد أن الدارسين يستوعبون دروسهم أكثر إذا ما درسوا باللغة العربية. ويبقى تدريسهم باللغة الإنجليزية غير واضح المعالم، حيث يلاقي الدارس صعوبات كبيرة في الفهم والتخاطب مع مدرسه.

استنتج صادق الهلالي في مقالته «تعليم الطب باللغة العربية في الجامعات العربية»، التي نشرت في مجلة «شؤون عربية» مجموعة من الإيجابيات عند تدريس الطب بالعربية أهمها أن تشجيع البحث العلمي باعتماد اللغة العربية كان وراء نجاح الكثير من التجارب في البلدان العربية. ففي كلية الطب بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة، طلب من الطلاب تحضير أبحاثهم باللغة العربية، فلقي الطلب ترحابًا كبيرًا داخل الوسط الطلابي. فجاءت البحوث غنية علميًا، الشيء الذي يوضح دور اللغة الوطنية في توصيل المعرفة كيفما كان نوعها.

ويبقى التعريب، دائمًا، مرتبطًا بالضوابط الاقتصادية للمجتمع، حيث لا يمكن النهوض باقتصاديات البلاد إذا كانت هناك نسبة مرتفعة من الأمية يعجز السكان معها على فهم المشاريع والمخططات التي تعتمدها الدولة. فالمؤسسات الإعلامية، من مرئية ومقروءة، تبقى هي السبيل الوحيدة نحو تحقيق هذا الهدف. ولهذا وجب مكافحة الأمية بتخصيص برامج لتشجيع القراءة والكتابة باللغة العربية. ففي بداية الستينيات، قام البنك الدولي بتشجيع الدول العربية على تنفيذ مشروع التعريب، والعمل على توسيع استعمال اللغة العربية وما يرتبط بها من نشر للكتب، ومجلات متخصصة، ودوريات قد تساهم كلها في إحياء اللغة العربية، وتخفيض نسبة الأمية في العالم العربي.

ويتضح مما سبق، أن كل من عارض مشروع التعريب كان في الحقيقة يعارض مبادئ أساسية في التحليل العلمي الموضوعي. فالتقييم الذي عرضناه، ولو باختصار، يبيِّن أن اللغة العربية، بنظامها الاشتقاقي للمصطلحات، كافية لتطوير القاموس العربي وجعله مواكبًا للتقدم العلمي والتقني.

لقد تمت الإشارة إلى الإيجابيات التي تنتج عن تطبيق هذا المشروع، لذلك أصبح من الضروري التعجيل بتطبيقه في مختلف المجالات المعرفية، مع العلم أن نجاحه يتطلب سنوات من العمل الدؤوب والدعم المادِّي المتواصل. بل أكثر من ذلك، يجب اعتماد مراجعة شاملة للوسائل المتبعة في تدريس اللغة العربية التي لم تعد تستجيب لحاجيات الطالب. وحتى نعيد الاعتبار للغة العربية، وجب إحياء تراثنا العربي وتوحيد أمَّتنا وإقرار رسمية اللغة العربية. وبدون تناسق الجهود في هذا الباب، سوف يحس الدارس العربي بنوع من التشتت، خصوصًا عندما يجد نفسه أمام المصطلح الواحد الذي اعتمدت له كل أكاديمية عربية للغة معنى مغايرًا. هذه المسألة قد تؤدي إلى القضاء على مشروع التعريب من الأساس، وفي الوقت نفسه تساعد اللغة الأجنبية على تعزيز وضعيتها داخل ازدواجية قد نعجز كليًا على التخلص منها. ●

## الهوامش

١- كان اللغوي تشارلز فورجوسن (١٩٥٩) أول من اهتم بدراسة مشكلة الوضع اللغوي الذي يشار إليه بلفظ (Diglossia) وقام بتحليله تحليلاً علميًا ودقيقًا.

٢- (Punic) وهي لهجة فينيقية خاصة بقرطاجة القديمة.

## مراجع عربية


١- الأعزب، ١٩٧٤: من تاريخ اللغة العربية في مواجهة التحديات. الوعي الإسلامي، عدد ٢٣٦.

٢- الهلالي، صادق ١٩٨٦: تعليم الطب بالعربية في الجامعات العربية. شؤون عربية، عدد ٤٧.

٣- المنداسي، محمد ١٩٨٧: نحو تعريب العلوم في الجامعات المغربية. الموقف، عدد ٣.


## مراجع أخرى


1- BENTAHILA. Abdelali. 1985. The beginning of the Arabic Literary Language. in Annales de la Faculte des Lettres et des Sciences Humaines I. Hassan II University. Number 2.

2- BOUFOUS. L. 1988. L`Arabisation: Un dossier passionant et desesperant. in. L`Opinion. Jan. 15. 1988.

3- ELBIAD. Mohamed. 1985. A Sociolinguistic Study of the Arabization Process and its Conditioning Factors in Morocco. Ph.D. dissertation. New York.

4- FASOLD. Ralph. 1984. The Sociolinguistics of Society. England. Basil-Blockwell Publisher. Ltd.

5- FERGUSON. Charles. A. 1959. Myths about Arabic. in J. Fishman. ed. Reading on the Sociology of the Language. the Hague. Mouton.

6- ANDGUILLAUME. Gilbert. 1983. Arabisation et Politique Linguistique au Maghreb. Paris: G.P. Maisonneuve et Larose.

7- GROSJEAN. Francois. 1982. Life with two Languages: An Introduction to Bilingualism. Cambridge Harvard University Press.

8- HAMMOUD. N.S. 1982. Arabization in Morocco: A case Study In Language Planning and Language Policy Attitudes. Ph.D. dissertation. University of Texas.

9-HUDSON. R.A. 1980 Sociolinguistics. Cambridge University Press.

10-ZUGHOUL. R.M. 1985. Diglossia in Arabic: Investigating Solutions. in Anthropological Linguistics. Vol. 22 number 5.